بريد الجمعة

أثر المعارف الرقمية

الجمعة ■ ٣٠ اغسطس ٢٠٠٢ ■

بريد الجمعة

يكتبه: عبدالوهاب مطاوع

رأس النعامة!

يكتب اليك كثير من قرائك عن مشاكل الرجل العاطفية حين تتقدم به السن فتهمله رفيقة عمره، أو تهمل الجانب العاطفي من علاقتها به لحساب الابناء والاحفاد. وبنا أحد هؤلاء الذين اهملتهم زوجاتهم ليس حين تقدمت بي السن وانما منذ عشرين عاما. وحين كنت في عنفوان رجولتي. إلى جانب انني وعلى مدى ٤٠ عاما من زواجنا لم اسمع منها ذات يوم كلمة حلوة. ناهيك عن ان تكون كلمة حب. وبالرغم من انني أحبها حبا جما وعمليا. بالعواطف الفياضة وقادر على العطاء. العاطفي فانني اكتفيت تماما زوجتي في هذا الجانب نظرا لانها حادة الطبع وسليطة اللسان وجافة العواطف ومنبلدة الحس وليها شخصية نرجسية تعشق ذاتها الى حد لا يتصوره عقل. ومنذ أكثر من ٢٨ شهرا انحفت بالعمل لدى موظفة سامية عندنا تحب إسرافي. مرحومي. وبعد سبعة أشهر من التحاقها بالعمل اقتضت ظروف العمل ان تعمل معي لبعض الوقت. فاقتربت بذلك مني واصبحت تتردد على مكتبي وتجلس معي لتدارس امور العمل بل وخرجنا معا لأداء بعض الاعمال المهمة فكان الحديث يدور بيننا في سياراتي حول امور خارج نطاق العمل. وبدأت أرى فيها شخصية محببة إلى النفس من حيث رقة المشاعر وعفب العاطفة وطلاوة الحديث. لكنني قاومت انجذابي اليها بشدة لكيلا انزلق الى ما لا تحمد عقباه. وبدأت في استدرجني إلى ما هو أبعد من علاقة صاحب العمل بموظفة لديه فصددتها بشدة وبأدب شديد في نفس الوقت. وافهمتها مرارا وتكرارا انني زوج معد أكثر من ٤٠ عاما وزواجي مستقر. وانها أصغر من أصغر ابنائي ولا يسمح فارق السن الكبير بيننا بأي ارتباط لكنها ازدادت إصرارا وباحت لي بأنها كانت في البداية معجبة بي ثم تطور هذا الإعجاب إلى حب. وانها لم تشعر في تعاملها معي بفارق السن بيننا ولا تفكر اطلاقا فيه. حيث انني كما قالت اكثر شبابا من اي شاب والحق انني كنت قد تخلفت بها لكني كتمت مشاعري واحاسيسي عنها.. فظلت هي تضغط وانا اكثم إلى ان جاء يوم واعترفت لها بانني بالفعل احبها!

ومنذ تلك اللحظة تطورت علاقتنا إلى لقاءات خارج العمل ونزهات وتناول وجبات الطعام معا. حتى افعلت تناول الطعام في البيت. كما بدأت افتعل المبررات للخروج معها في مهام خارج المكتب بل والسفر ايضا إلى خارج المدينة بدعوى إنهاء المصالح.

وعشت اياما وشهورا من أحلى أوقات العمر لم تشعر هي خلالها اطلاقا بفارق السن بيننا حيث كنت أتصرف معها بروح شاب في الثلاثينيات من العمر وندهب معا لدور السينما والملاهي ونستقل المراكب في النيل ونتطلق في كل مكان معا كأي شابين متحابين متقاربين في السن. حتى أبدت هي نفسها بعفشتها لانها لم تكن تتصور أن أكون بهذا المرح والصبا على عكس شخصيتي في العمل التي تتسم بالاتزان والرزانة والصرامة. وخلال ذلك دخلت بيتها بدعوى توصيلها عند تأخرها ولم أجد إلا الترحيب من أهلها. وشجعني ذلك على دعوتها للغداء من حين لآخر، ثم بدأت أقدم لها الملابس والهدايا بل والمصوغات ايضا.. كما اهتممت بها من الناحية الصحية حيث كانت تشكو من بعض المشاكل فاصطحبتها إلى كبار الأطباء. وفي هذه الفترة عرضت هي علي أن نتزوج رسميا ولكن بدون علم أهلها لأنهم لن يقبلوا أبدا بزواجي منها في هذه المرحلة لفارق السن بيننا لكنه إذا تزوجنا سرا ثم أجريت أنا بعض «التزييفات» لتقبل مستقبلها، فإنها تستطيع ان تواجههم في الوقت المناسب بزواجها مني. لكني رفضت هذه الفكرة وأردت أن يكون زواجنا يعلم أسرتها وليس خفية عنها وبرات في صعوبة ذلك، وطلبت مني ان نتزوج عرفيا وان نؤجر شقة مفروشة إلى ان اقوم بشراء شقة خاصة بها وتأثيثها تأثيثا كاملا وتأمين مستقبلها بصورة تجعل أسرتها تتقاضى عن فارق السن بيننا وتقبل مزواجنا.. واقتنعت بوجهة نظرها واستأجرت الشقة المفروشة وتزوجنا عرفيا وعشنا معا أياما من أحلى الأيام. ومر حين لآخر تتكرش زوجتي الشابة بأني لم أفعل شيئا بعد في موضوع شراء الشقة الموعودة. وأنه يخيل إليها أنني لن أفعل شيئا فيه ويوما بعد يوم بدأت تختلف بعض الشيء في تعاملها معي وبعد أن كانت لا تطلب مني شيئا وأبادر أنا دائما بشراء الأشياء لها بغير طلب منها.. بدأت هي تطلب كل يوم طلبا جديدا حتى طلبت أن أشتري لها سيارة صغيرة لأنها لم تعد تتحمل ركوب المواصلات العامة أو سيارات الأجرة. فإذا لم أبي بسرعة بعض هذه الطلبات راحت تقول لي انها قد أصبحت رخيصة في نظري بعد أن أخذت ما أريده منها دون مقابل. ولهذا فلم اعد اهتم بطلباتها.

وفجأة ومن سابق إنذار انقلبت حياتنا رأسا على عقب. فلقد كنت أقوم بتوصيلها ذات مساء إلى بيتها بعد زيارة للطبيب ففوجئت بمقابلة جافة للغاية من أسرتها. وفي اليوم التالي جاءني هي وطلبت مني الإمتناع عن الاتصال بها في بيت اسرتها. والامتناع كذلك عن توصيلها وعن زيارتها في البيت لانها قد تعرضت للوم شديد من اسرتها التي تقول لها ان الجيران يتساطون عن هذا الرجل الذي يروونه معها في وقت متأخر. ولأن اسرتها ايضا قد حذرتها بشدة من مجرد التفكير في الارتباط بي لفارق السن بيننا. واكدت لي انه قد وقعت مشادات عديدة بينها وبين أبيها وأمها بسببي وأن أبويها لن يوافقا أبدا على زواجنا وقد يسقطان صريحين إذا علما بزواجنا العرفي السري. وحاولت تهوين الأمر عليها بقدر استطاعتي غير أنها عادت إلي في اليوم التالي وطلبت مني الطلاق. وإنهاء موضوع الشقة المفروشة وتحديد علاقتي بها في اطار العمل فقط وإنهاء اي علاقة أخرى.

وبعد أيام ابلغتني بأن اباها قد احضر لها خطيبا وانها تصر على الطلاق قبل ان تقبل بهذا الخطيب. واستجبت لإصرارها في النهاية ونطقت بطلاقها.. وكان آخر مطلب لها مني هو أن نستمر في العمل لدى والا استغني عنها الحين وضوح الرؤية أمامها، ثم بدأت تبتعد عني خلال العمل وإذا حاولت محاسبتها ابتعدت واختلقت الاعتذار بشيء آخر، وهي حالياً تؤدي عملها فقط. وتتصرف منه في المواعيد المقررة وتحاول بقدر الإمكان عدم الاحتكاك بي والابتعاد عني دائماً.

ولست في حاجة لأن أحدثك عن مدى الحزن وعمق الأسى الذي أعيشه هذه الأيام. غير أنه اهم من الحزن أن أفهم ما هي «القصة» بالضبط إذ انني لا أفهمها بالرغم من رجاحة العقل وخبرة السنين ولا أفهم مانا حدث.. وكيف حدث ولعل هذه هي الحقيقة أم أنها مناورة نكية للضغط علي لكي استجيب للطلبات السابقة فهل أجد لديك جوابا شافيا لهذه التساؤلات؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا تستطيع الحكم على النيات ولا التفتيش في الضمائر لاستنطاق المكنون داخلها والاطلاع عليه.. لكني استطيع على الأقل أن أضع أمامك بعض الحقائق التي قد تعينك على «فهم» ما جرى وما صعب عليك استيعابه.

والحقيقة الأولى هي أن البداية التقليدية بإدانة رفيقة العمر وإتهامها بجفاء المشاعر وتبلد الأحاسيس والترجسية حتى ولو كان صادقا فإنه لا يجيز لرجل في قمة العمر مثلك ويتصف بالرزانة والحسم والاحترام ان ينزلق إلى مثل هذه القصة المخجلة مع فتاة تصغره في السن بأربعين سنة على الأقل وما هذه الإشارة إلى جفاء زوجتك وشريكة حياتك في بداية قصتك إلا حيلة نفسية مفهومة من جانبك للتبرير والتماس العذر لنفسك فيما اوقعت فيه وتشعر في اعماقك بأنه لم يكن لبليق بك.

والثانية: هي ان المثل الصيني القديم يقول لنا ان من يريد الحصول على أشياء النمر عليه ان يدخل عرينه. بمعنى ان يواجه خطر انقضاض النمر عليه والتراسه قبل ان يظفر باشياءه وان يقبل بهذه المخاطرة المهلكة في سبيل الحصول على ما يريد فإذا طبقت هذا المثل الصيني على قصتك مع هذه الفتاة وفحصص الآخرين من بعض اصحاب الأعمال أو المديرين مع موظفات يصغرنهن غالبا بثلاثين أو اربعين سنة. لقلت لك ان من يريد كذلك أن «يشتري» الشباب المنقضي ويطوب «بالزهو» المؤقت «بإعجاب» فتاة تصغره بأربعين سنة «بمرحه وصباه» وبحيويته التي تفوق حيوية الشباب كما زعمت لك تلك الفتاة عليه ان يقبل بأداء «تكاليف» تلك راضيا وهي تكاليف تتجاوز بكثير المزهات والهدايا الصغيرة وركوب المراكب في النيلي القمرية وارتياد المطاعم لكنك في غمرة زهوك «بانبهاش» هذه الفتاة بمرح شخصيتك وشبابك، لم تنتبه إلى انك أمام فتاة «عملية» اختارت ان تحقق اهدافها في الحياة عن طريقك فعرضت عليك ان تتزوجها رسميا بغير علم اسرتها على ان تشتري لها شقة وتؤمن مستقبلها. وحين ترددت بعض الشيء في القبول عرضت عليك الزواج العرفي السري الذي لا يكاد يختلف في شيء عن العلاقة الآثمة على ان تؤجر لها مؤقتا شقة مفروشة إلى ان تشتري الشقة الموعودة وتؤثثها وتؤمن لها مستقبلها ماديا لكي تضع اسرتها بعد ذلك امام الأمر الواقع. فرحبت بهذا الحل في غمرة تلهفك عليها.. وارتبطت بها ونهلت من رحيقها.. وانتظرت هي ان تاتي لها «براس النعامة» التي وعدتها به فإذا بك تتمهل وتراجع حساباتك. وتستذلل «فاتورة» المتعة دل وتتنابك الدهشة لكثرة مطالبها منك بعد الزواج السري.. وعجزك عن ملاحقتها بالسرعة الكافية.. مع ان هذه المطالب نفسها جزء اساسي من «صفقة» الزواج السري بين فتاة في اوائل العشرينيات وزوج منذ ٤٠ عاما. وأب لأبناء يكبر أصغرهم هذه الفتاة المتطلعة للحياة المرتبة على حساب ابيهم.. فما وجه العجب في ذلك اللهم إلا ان تكون قد صدقت معزوفة الحب «المبرأ من الغرض» الذي اغرى هذه الفتاة الصغيرة بالارتباط به؟

لقد روى الحكيم الافريقي ايسوب في خرافاته الشهيرة، قصة طريفة عن انثى النمر التي شكت ذات يوم لذكر الحداة من انها لا تجد الزوج الكفء الكريم الذي يليق بها فعرض عليها ذكر الحداة نفسه. وسألته انثى النمر: هل يستطيع كسب عيشه وتوفير الحياة الكريمة لها فأجابها: ماذا تقولين؟ انني اصيد الذعامة الكبيرة بمخالبي هذه واحملها في الهواء إلي عشي: فقبلت بالزواج منه. وبعد أيام طلبت منه ان يصيد لها نعامة تلذذي بلحمها.. فحلق في الهواء لم رجع إليها وفي مخالبه فارة صغيرة ميتة هي كل ما شمح له قدراته بحمله وصيدها..

فسألته مستنكرة: أهذا وفاؤك بالوعود؟

فأجابها: انني في سبيل الفوز بك لم أكن لاحجم عن ان اعد بأي شيء حتى ولو علمت بعجزي عن القيام به. ومن وجهة نظر هذه الفتاة «العملية» فإنك قد كررت مثال نكر الحداة مع انثى النمر. وزعمتها براس نعامة. فإذا بالفريسة معك تطير عن فارة صغيرة لا تكثر.

ولأن فهم كل شيء يجلو غموضه ويفسره فإن منطق الفتاة التي «تتزوج» من رجل بكبرها باربعين سنة او اكثر حتى ولو كانت صادقة الحب له في احيان نادرة، هو أن رحلة القطار معه ستكون قصيرة مهما تطل تسليما بحقائق الحياة والزمن، وبالتالي فلابد من ان تتقطع لتأمين مستقبلها معه حتى إذا حانت اللحظة المحتومة لم تغادر القطار بغير متاع يعينها على استكمال رحلة السفر بوسائط أخرى ومن يقبل بقواعد اللعب من البداية لا يحق له أن يشكو من تداعياتها في المستقبل ومشكلتك يا صديقي انك لم تستوعب جيدا قواعد اللعبة في غمرة النشوة بإعجاب الفتاة الصغيرة «وحبها» لك.

وبغض النظر عما إذا كانت فتاتك صادقة العزم على إنهاء قصتها معك او انها تضغط عليك بالهجر المؤقت لكي تستجيب لمطالبها المادية المتزايدة وتدفع فاتورة شراء الشباب كاملة. فإن المحصلة واحدة.. وهي ان عليك ان تراجع موقفك وقصتك مع هذه الفتاة فإذا كانت صادقة النية في طي هذه الصفحة الشائنة من حياتها فمن واجبك أن تعينها على تصحيح مسارها في الحياة، وعلى أن تبدأ حياة طبيعية مع شاب مقارب لها في السن. وتكفر عن هذا الخطأ الجسيم في حياتها، وإن لم تكن كذلك فمن واجبك أيضاً أن تصمد لضغوطها عليك للإستجابة لمطالبها، وان تطوي انت هذه الصفحة المخجلة من حياتك متعزيا بأن خسائرها مازالت في حدود الاحتمال والسيطرة. وانها لم تؤثر بعد على حياتك العائلية وصورتك لدى ابنائك وسمعتك الاجتماعية وأن تحاول الاكتفاء بحياتك الخاصة المحترمة وبعث الحرارة في زواجك الذي تصفه انت بالاستقرار، واستعادة صورتك السابقة التي تنسم كما تقول برجاحة العقل والرزانة والجدية الصارمة. وحبذا لو ابعدتها عن مجال نظرك وسمعك لكي تتخلص من مؤثرات وجودها في الجوار القريب ولو تطلب ذلك السعي لإيجاد عمل آخر لها لدى احد معارفك او عملائك بشرط الا يكون ضعيف الإرادة امام الاغيب بعض القيمات الصغيرات المتطلعات إلى حياة افضل على حساب تزلق بعض الكهول والشيوخ وتعاميهم عن حقائق العمر والحياة وانتشائهم الوقتي بوهم اعجاب الشباب بهم.

والإنسان يا صديقي قد يخطيء مرة. لكنه يخطيء خطأ أبلغ إذا تقاعس عن إصلاح خطئه الأول أو تجاهله وتعامى عنه!